الكوخ

قصة بقلم عبد الرفيع الجوهري

احد عشر خريفا مضى ...

كوخ القصدير لم يتغير ، وساكنوه شحبت وجوههم وافتقدت معالمها ..

في الخريف الماضي رحل « حمو » .. دفنوه في سفح الجبل .. كان ذلك ذات صباح عاصف .. السماء كانت سوداء ، كل شيء كان اسود .

الذكرى الحزينة تعود ، يحملها خريف جديد : الخريف الثاني عشر .

ـ « لا .. ليس الخريف الجديد .. ليس الخريف الثاني عشر ، الخريف لا يبلى لا يمضي ، انه نفس الخريف الذي مات فيه « حمو » هكذا قالت فطومة ومرارة الاسى تلف قسمات وجهها الطيب .

الصباح بلا شمس .. بلا ضياء ، الظلمة حالكة .. قلب فطومة يدق بعنف يرتعش ، الشمعة ايضا ترتعش والعاصفة قوية . والسماء .. اين السماء ؟ السماء لا ترى من الكوخ .

ما ارعبه من صباح بلا شمس انه يذكرها بزوجها الفقيد ، لقد كان ممددا هنا على الحصير يحتضر .. لم تكن انذاك بالكوخ سوى شمعة واحدة ، لكن ظلام الكوخ ابتلعها فقد بدأت تتلاشى .. « تتلاشى » وانبعثت منها حزمة ضوء ملونة ثم اختفت ، كم كان وجه « حمو » هادئا وحزمة الضوء الملونة تغمره بالظلال والالوان ، كان اقوى من الموت ، لقد ظل يحدق الى اعلى .. سقف الكوخ لم يكن قويا كنظرائه ، فعيناه لم تنطفئا ، لقد كان ممددا هنا على الحصير يحتضر ، « حمو » كان هنا .. « حمو » كان هنا ...

ومدت يدها كانما ستحسس جسمه النحيل فاصطدمت بالمهدي صغيرها الوحيد انه ينام نوما عميقا .. هذه الرعود المجنونة لم توقظه ..

البارحة قبل ان ينام كان يرتعش من البرد . وجهه الصغير كان اصفر من زهرات الخريف . لكنه كان يملأ الكوخ باشواقه الحلوة .. الدمعات الكبيرة اللامعة التي كانت تدور في عيني امه امس اشعلت في عينيه احلاما كبيرة ، فكان لا ينقطع عن الكلام .. لقد قال لها :

ـ سأحطم هذا الكوخ يا ماما لابني لك دارا كبيرة ، اكبر من هذا الريف ..

لكن هذا الكلام لم يزد دموعها الا انهمارا فالمهدي لا يزال في ربيعه الحادي عشر .. لا بل في خريفه الحادي عشر ، الناس في اكواخ القصدير لا تقاس اعمارهم بالربيع .. انسان الكوخ يعيش خريفا دائما ...

ـ ما اطيبك يا ولدي ..

انحنت لتحضنه لكنها لا تريد ازعاجه ، لا تريده ان يستيقظ في هذا الصباح العاصف ، يكفي ان تظل عيناها معلقتين به ، بوجهه الصغير ، بيديه المختلطتين بالدهن الاسود ، بقميصه الممزق المليء بالبقع .

ـ ما اطيبك يا ولدي ..

وادنت حاشية ثوبها البالي من فمها ثم بللتها وشرعت تزيل من يديه الدهن الاسود ، فالمهدي يرحل عن القرية كل صباح الى المدينة ليمسح احذية الناس ويعود مع الليل منهوكا .. يحمل صندوق الخشب وعلب الدهن الاسود .

العاصفة تشتد .. ما ارعبه من صباح بلا شمس !

المهدي تعود ان يصحو في هذا الوقت .. لكنه الان غارق في نوم عميق . اذن يجب ان توقظه ...

والعاصفة ؟ والبرد ؟ والظلام ؟

لا لن توقظه ، الارض مبتلة والمهدي بلا حذاء .. انها تخاف ان ينبطح تخاف ان يقع في ساقيات القرية .

ولكـــن ...

الكوخ ليست فيه كسرة خبز .. الكوخ فارغ ، ليس هناك سوى « حصيرة » و « برادة » و « اناء خزفي » والباقي جدران وسقف من قصدير .. حتى الشمعة الاخيرة التي تغالب ظلام الكوخ ستنطفيء انها توشك على التلاشي ..

هل توقظه ؟ ولماذا توقظه ؟

في هذا الصباح العاصف اذا ايقظته سيرحل عن القرية ، سيحمل صندوقه الخشبي وعلب الدهن الاسود ليمسح احذية الناس في المدينة .. ليطوف المدينة بلا حذاء ...

قطرات كبيرة بدأت تسقط من سقف الكوخ ، المطر ينهمر بعنف وفطومة تلتصق بصغيرها تحميه من هذه القطرات ، وشيء اشبه بالباب ينفتح فيصدر صوتا متقطعا كأنين «حمو» قبل ان يدفنوه في سفح الجبل ..

وبدأت تتسلل من شقوق الكوخ خيوط ضياء رمادي لكن العاصفة لم تهدأ والمهدي لم يستيقظ .. الشمعة تنطفيء ووجهه الصغير يغرق في خيوط الضياء الرمادي .

ـ تحرسك عناية السماء يا ولدي .

لمعت عيناها الشفوقتان بوهج من الحنان وهي تتطلع اليه ، واشرقت شفتاها الكريمتان بابتسامة اكبر من الكوخ .. اكبر من القرية .

كان بامكانها ان توفر عنه عناء هذا اليوم ، فهي تغسل ثياب ناس المدينة لقاء قروش وكسر خبز ، لكن ناس المدينة لا يغسلون ثيابهم في صباح بلا شمس ، المطر ينهمر اليوم بغزارة .

وتراءت امامها احواض الغسيل وفقاقيع الصابون واكداس الاثواب القطنية والصوفية التي كانت تغسلها لناس المدينة في الايام المشمسة ..

ـ لك الله يا ولدي .

تململ المهدي فتمزق منكب قميصه وتذكرت فطومة المعاطف الصغيرة التي كانت تغسلها تذكرت الاولاد الذين يلبسونها .. انهم لا يمسحون احذية الناس في المدينة انهم يحتسون كل صباح فنجان قهوة ، ثم يتوجهون الى المدرسة وصغيرها محروم من المعاطف وفنجان القهوة والمدرسة ..

« حمو » قبل ان يختفي من الكوخ كان يحمل الحلوى للمهدي كلما عاد من المدينة .. وقتئذ لم يكن المهدي يرحل عن القرية ليمسح احذية الناس ..

احد عشر خريفا مضى ...

كوخ القصدير عمره احد عشر خريفا ، انه لم يتغير رغم الصدأ الذي يكسوه .. جدرانه لا زالت قائمة .. انه لا يزال كوخ قصدير .

ـ « مهدي » فتح عينيه في ظلام هذا الكوخ .. لفظناه وقتذاك في صفحات الجرائد التي كان يستعملها « حمو » في بيع الخضراوات لاهل المدينة .. « حمو » كان يشرب عرقه قبل ان يصل الى الضيعة التي يشتري منها هذه الخضر .. لقد امضى عمره بائع خضر متجول ليعود ذات ليلة الى القرية بلا عربة ، لقد سلبوها منه ، أخذوا العربة والخضر . ومنذ ايام كانوا سيسلبون « مهدي » صندوق الخشب وعلب الدهن الاسود .

لا .. لن اوقظه .. مهدي في هذا الصباح العاصف ، اذا رحل عن القرية لن يعود .. سيحجزونه ، سيسلبونه مني لا .. لا ..

ـ لماذا تصرخين هكذا يا ماما ؟ لماذا تبكين ؟ ألم اقل لك سأحطم الكوخ لابني لك ، دارا كبيرة اكبر من هذا الريف .

كان المهدي قد استيقظ ، فصوت فطومة المخنوق بالدموع كان يرتفع ويرتفع .. ما ارعبه من صباح بلا شمس .. المطر ينهمر بغزارة والزوبعة تشتد والمهدي يبحث عن صندوق الخشب وعلب الدهن الاسود ليرحل عن القرية .. عيناه البدويتان كان فيهما طموح اقوى من الزوبعة ...

الرباط ـ المغرب

عبد الرفيع الجوهري